أزمة إختيارات سياسية

المنصف وناس

انّ الثقافة العربية استطاعت تاريخياً أن تستفيد من كلّ الهزائم التي لحقت الوجود العربي وتطوّرها لتحفيز فعاليتها الابداعية. فالهزائم التي لحقت البناء العربي ابتداء من انتكاس تجربة محمد علي في مصر والهيمنة الاستعمارية وهزيمة حزيران ١٩٦٧، ولّدت فكراً نهضوياً وتصوّراً نقدياً للسلطة والمجتمع وعقلنة للواقع العربي، وهي كلها مكاسب حضارية لا يستهان بها. ولذلك يمكن الحديث عن مفارقة غريبة: فكل انتكاسة يعيشها الواقع العربي تفرز فكراً نقدياً وعقلانياً متطوّراً في مختلف وجوهه. فالفكر النهضوي (شبلي شميل ــ محمد عبده ــ الافغاني) والفكر الفلسطيني (صادق جلال العظم ــ منير شفيق ــ ناجي علّوش. . . .) يعتبران صورة من تقدّمية الثقافة العربية وقدرتها على تجاوز واقع الأزمة والتردي الحضاري المعاش

لقد خلقت الهزائم العربية تقاليد نضالية في ميدان الثقافة وأعطت الفرصة للمثقفين لتجاوز الترسيمات المجتمعية التي فرضتها الأنظمة العربية، ومن ثم يتوجّب مواصلة تقاليد النضال والنضالية من أجل صياغة اجماع على مجموعة اختيارات حضارية غير التي تفرضها الأنظمة.

انّ التهويل لواقع الهزائم العربية يعطي مردوداً عكسياً لأنه يخلق وضعاً عكسياً يتسم بالتعجيز النفسي والشعور بالاحباط الهيكلي. ولذلك فالأزمات التي يعاني منها العرب نتاجٌ للاختيارات السياسية والحضارية التي توجه الأنظمة، وما ثبت تاريخياً هو ان الأزمات هي المحك الوحيد لترشيد وتحفيز الفكر العربي.

ومن ثم، فالثقافة العربية اكتسبت ثراء وتطوّراً في فترات الهزائم والأزمات وأنتجت أجيالاً من المثقفين الطليعيين والتقدميين، تمكنت الأجيال الشابة معهم من مواصلة هذه التقاليد النضالية وتكريس قطيعة الثقافة مع واقع الأنظمة. ان الكتابات السياسية والتراثية لم تكتسب أهميتها العقلانية والنقدية الا بعد هزيمة ١٩٦٧ التي خلقت انفصاماً في الشخصية العربية وعقدة حضارية من الصعب مقاومتها.

فالحركات الثقافية التي نشأت على هامش السلطة في الوطن العربي حركات فاعلة في المستقبل العربي، وهي رمز ومؤشر للتغيّر الحضاري. ان العرب غير مقتنعين حتى الآن بأهمية العنصر الثقافي في الترشيد العقلاني للفرد العربي. فاذا كانت الساحات العربية ميادين لممارسة العنف السلطوي، فان الثقافة النضالية أرضية لخلق عمل ثقافي حيادي لا تهيمن عليه السلطة في مختلف صورها وأشكالها. هذه الثقافة، من واجبها أن تكون قومية التوجّه وطليعية الرؤية والتحليل.

صحيح أنّ التحالفات الاستعمارية والإمبريالية ضد الوطن العربي متكثّفة ومتنوّعة ولكن التعويل على الاختيارات السياسية لمواجهتها خطأ تاريخي، باعتبار ان هذه الاختيارات أثبتت فشلها وعجزها في ظلّ واقع يتسم بالتبعية والتهميش. ان التهويل والتضخيم للغزوة الامبريالية والصهيونية

كانت السبب في شلل حضاري أصاب العرب في فترات متباعدة ومتلاحقة مثل الفترة الفاصلة بين سنة ١٩٦٧و١٩٧٣، حيث جمدت الحركية العربية ومات الفعل العربي بشكل مهول.

انّ المركز العربي بما يعنيه من تعابير سلطوية وأنظمة حكم عاجزٌ عجزاً هيكلياً عن المواجهة الفعلية، ومن ثمّ يتحتّم بلورة وتنضيج الحركات المحيطية من مثقفين وعمّال وصولاً الى خلق ردة الفعل الجماهيرية والفعلية. أما عدا ذلك فخطأ ستراتيجي تكون عواقبه وخيمة وخطيرة على المستقبل العربي.

فما هي اذن أشكال المواجهة الحقيقية؟

يمكن تلخيص أشكال المواجهة الحضارية كالتالي:

أولاً: خلق قطيعة حضارية بين الاختيار السياسي والنتاج الثقافي وتشجيع الحركات الثقافية المحيطية من أجل خلق الثقافة التقدمية.

ثانياً: عدم اعتبار المواجهة للغزوة الصهيونية والامبريالية حكراً على الأنظمة العربية وتخطيط مواجهة جانبية.

ثالثاً: وضع مشروع ميثاق عمل للمثقفين العرب يُلزمهم في كل توجهاتهم وحياتهم الثقافية.

هذه أسس المواجهة التي نتصور مسارها وصولاً الى تحصين الأجيال العربية من التشرذم الحضاري والضياع. فهناك مفارقات حضارية غاية في الغرابة يتوجب العناية بها لتحديد الجوانب والجهات المسؤولة عن وضعية التردي.

فمن هو المسؤول عن هزائم العرب في سنة ١٩٤٨ و٦٧ و١٩٨٢ ومن هو المسؤول عن المجازر الابداية للشعب الفلسطيني في العديد من المناسبات والأماكن؟ من سرق العرب نجاحات تجربة محمد علي باشا في مصر وتجربة عبد الناصر ومن فرض الاستسلام على الأمة العربية في الكثير من المناسبات؟

تلك أسئلة تتطلب الإجابة عنها مراجعة الاختيارات السياسية العربية ومعرفة مدى مساهمتها في هذه الازمات التي تستفحل سنة بعد سنة، ويتعمق بتعمّقها التخلّف العربي المُعاصر.

هذه الأشكال من الممارسة في حد ذاتها دليلٌ على أزمة الواقع العربي، ولعل أوّلَ من يملكون فاعلية التأثير والتغيير هم المثقفون.

تونس